بحث بعنوان

مقدمة في علم الأخلاق

بقلم

د / أسماء حسن أبو عوف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

أهمية الموضوع :

فلسفة الأخلاق تحتل مكانًا مرموقًا في الدراسات النظرية؛ لأنها تقوم على دراسة كثير من الظواهر السلوكية، والتجول في فحص سلوك الكائن البشري عملية شيقة ومعقدة .

عملية شيقة :

لأنها رحلة مع سلوك الكائن البشري لمعرفة بواعثه وأهدافه ، ولتقيميه لتمييز الخير من الشر فيه .

وهي عملية معقدة :

لأن الإنسان يحار بين المذاهب والآراء ، عندما يريد مواضيع بعينها محددة ، فهو لا يستطيع مثلاً بسهولة أن يجد معيارًا خلقيًا ثابتًا يحمل عليه جميع المجتمعات في أزمنة مختلفة ، وأوطان متباينة ، وبيئات متعددة ، وهو لا يستطيع دون عناء أن يجد نوعًا من الإلزام الخلقي يحمل الشواذ عن قواعد الأخلاق ، وهنا تأتى أهمية الأخلاق فى الإسلام .

وكان سبب اختيار الموضوع :

حالتنا الراهنة أحوج ما نكون إلى بناء أمتنا على أسس قوية ، فإن ذلك لن يتأتى إلا إذا كانت الأخلاق العليا والمثل الرفيعة هي الأساس في هذا البناء .

وحسبنا في ذلك أن أي فكرة من الأفكار ، أو نظرية من النظريات ، تتعلق بسلوك الإنسان لا تظهر قيمتها إلا في تطبيقاتها العملية؛ لأن السلوك أقوى تأثيرًا من القول الأجوف ، وليس من قبيل الكلام فقط أن يقال : إن صلاح الأمم والجماعات والأفراد إنما يعتمد – أساسًا – على الأخلاق ؛ لأن الواقع أكبر شاهد على ذلك ، فكم

من أمة هي في مضمار التقدم المادي رصيدها معلىّ ، ولكنها في مضمار الأخلاق مفلسة لا رصيد لها ولا مدخر، فسرعان ما ينهار بناؤها المادي ، وتتراجع نظمها الاجتماعية.

وتجد في المقابل لهذه الأمة كم من أمة رصيدها من المادة لا يكاد يذكر ، ولكنها في الناحية الأخلاقية ذات رصيد مدخر ، فهي بهذا الرصيد تطاول الشمس وذلك بفضل أخلاقها .

وقد صدق الله العظيم حيث قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [1] .

وإذا نظرنا إلى الأخلاق كسلوك – حسن أو قبيح – ، نابع من الفرد تجاه بعض الأمور، فإنه يجب علينا أن نشير إلى أول صورة حية لهذا السلوك الذي ننعته بأنه أخلاقي .

وهناك أنواع متعددة من السلوك الإنساني ، إذ يوجد سلوك سياسي وثاني اجتماعي ، وثالث ديني ، ورابع نفسي ، ولكن بتدخل بعض العناصر في هذه الأنواع من السلوك ، يصير أي منها سلوكًا أخلاقيًا .

ومن ثم قد عقدت العزم على عمل سلسلة في السلوكيات وعلم الأخلاق ، متوخية بيان أصولها وتطوراتها ، وما يتصل بذلك من مباحث الدراسة النظرية ، وبجانب هذا سأعمد إلى دراسة الجانب العملي للأخلاق ، الذي يتجلى في دراسة الفضائل والحقوق، والواجبات ، حتى نكون على بينة من علاقتنا الاجتماعية ، لنضعها في مكانها ، وقصدي من ذلك – بعد أن أكون قد أرضيت الله – أن يُنتفع بهذه الدراسة في تحسين سلوكياتنا .

وسأحاول أن أبدأ هذه السلسلة في السلوكيات بمقدمة فى علم الأخلاق .

---

(١) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الصف .

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة تناولت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياري لهذا الموضوع ، والمنهج الذي سار عليه وهو منهج الاستقراء ، ثم خطة الموضوع الذي قسمته إلى ثمانية مباحث :

المبحث الأول : مدخل إلى علم الأخلاق .

المبحث الثانى : تعريف علم الأخلاق .

المبحث الثالث : موضوع علم الأخلاق .

المبحث الرابع : غايته وثمرته ، وأقسامه .

المبحث الخامس : هل الأخلاق فطرية أم مكتسبة ؟

المبحث السادس : هل الأخلاق قابلة للتعديل والتغيير ؟

المبحث السابع : الفرق بينه وبين العلوم الإنسانية الأخرى .

المبحث الثامن : الفرق بين الأخلاق النظرية والعملية .

ثم الخاتمة وثبت المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات .

المبحـث الأول

مدخـل لعلـم الأخـلاق

لقد شاء الله تعالى للإسلام أن يكون الرسالة الخاتمة الخالدة لكل الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأزمانهم ، وجعل فيه تلك الخصائص الفريدة المدهشة كالشمولية ، والوسطية ، والواقعية .

وتعد الأخلاق الفاضلة من أهم الأسس التي اعتمدها الإسلام في بناء الفرد وإصلاح المجتمع ، إذ بها يتم دينه وتصلح بها دنياه وأخراه جميعًا ، قال رسول الله ﷺ : " إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق " [١] .

ولقد اهتمت الشرائع والأديان بوقاية أبنائها من الأمراض الأخلاقية التي تفتك بالمجتمع فتكًا ذريعًا ، وسعت بتعاليمها ومبادئها إلى تحذير الأفراد من أخطار الأخلاق الفاسدة .

ويبين لنا التاريخ أن كل أمة نهضت ، وكل حضارة ازدهرت وتطورت كان بفضل أبنائها الذين ملكوا نفوسًا قوية وعزيمة صادقة وهممًا جبارة ، وأخلاقًا حميدة ، وسيرة فاضلة .

فهؤلاء ابتعدت نفوسهم عن سفاسف الأمور ولم يقعوا فريسة للأغلال والفساد أو أسرى الملذات والشهوات أو مطية للجهل والتخلف ، بل انطلقوا بقيمهم ومبادئهم حتى بنوا الحضارات .

وهذا يتجلى واضحًا في الإسلام لكل باحث منصف يرى في الإسلام كنوزًا حافلة بالنفائس دونها ما ورث الناس من فلسفة اليونان والرومان ، فقد قيل لعالم مسلم : هل قرأت أدب النفس "لأرسطوا" ؟ فقال : بل قرأت أدب النفس لمحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .. !! [٢] ، ولقد حدد رسول الإسلام الغاية الأولى من بعثته والمنهاج

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٩٠٤ ، والبيهقي ١٠/ ١٩٢ ، والحاكم ٦١٣/٢ .

(٢) خلق المسلم ، محمد الغزالي ص ٤ – دار الكتب الإسلامية ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م

المبين في دعوته بقوله :" إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق " [١] ، وهذا هو البيان الإلهي يحدثنا عن رسول الله ويصفه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [٢] ، ويحدثنا في موضع آخر عن بعض أخلاقه ﷺ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [٣] ، وفي صحيح مسلم أن سعد بن هشام سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت : " كان خلقه القرآن " [٤] فقال : لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئًا [٥] .

هذا وقد ربط الإسلام بين الظاهر والباطن فلم يأمرنا بطقوس مبهمة ولا عبادات غامضة ولا بفرائض غيبية لا معنى لها . بل هي فرائض وتكاليف لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل مستمكسًا بها مهما تغيرت الظروف ، ملتمسًا في المداومة عليها عافية البدن وسلامة الحياة ، والقرآن والسنة يؤكدان على ذلك فقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [٦] ففيها تطهير من سوء القول وسوء العمل . والزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الأغنياء بل هى غرس لمشاعر الحب والحنان والرأفة للغير وتوطيد العلاقات للتعارف والألفة بين شتى الطبقات. قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [٧] .

من أجل ذلك وسَّع النبي ﷺ في دلالة كلمة " صدقة" التي ينبغي أن يبذلها المسلم فقال : " تبسمك في وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (٢٧٣) .
(٢) سورة القلم : ٤ .
(٣) سورة الأعراف : ١٩٩ .
(٤) أخرجه مسلم (٧٤٦) .
(٥) تكملة الحديث السابق (٧٤٦) .
(٦) سورة العنكبوت : ٤٥ .
(٧) سورة التوبة : ١٠٣ .

الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة" [١] ، كذلك الصوم لم ينظر إليه الإسلام على أنه حرمان مؤقت من بعض الأطعمة والأشربة ، بل جعله خطوة إلى حرمان النفس من شهواتها المحظورة ونزواتها المنكورة فقال الرسول الكريم ﷺ : " ليس الصيام من الأكل والشرب إنما الصيام من اللغو والرفث فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل إني صائم" [٢] .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [٣] ، كذلك فريضة الحج قد ينظر إليها الإنسان على أنها رحلة مجردة من المعاني الخُلقية ولكنها رحلة تحمل بين طياتها جملة من الأخلاق الحميدة ، ففي كل ركن منه وكل سنة فيه تحث على التحلي بخلق ما قال تعالى : ﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [٤] .

وهكذا يتضح لنا أن تلكم العبادات هي مدارج الكمال المنشود وروافد التطهر الذي يصون الحياة ، ويعلي شأنها فإذا لم يستفد المرء منها ما يزكي قلبه وينقي صدره ويهذب بالله وبالناس صلته فقد هوى [٥] ، وقد جعل الله الأخلاق الفاضلة سببًا تُنال به الجنة العالية ، فقال تعالى : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [٦] .

---

(١) أخرجه الترمذي في باب ما جاء في نفائع المعروف برقم (١٩٥٦) ، وقال حديث حسن ، غريب ، وفي سنن الترمذي فيما ذكره الشيخ الألباني برقم (١٥٩٤) .

(٢) أخرجه ابن خزيمة (١٩٩٦) ، وابن حبان (٣٤٧٩) .

(٣) سورة البقرة : ١٨٣ .

(٤) سورة البقرة : ١٩٧ .

(٥) خلق المسلم صـ ٨ ، ٩ .

(٦) سورة آل عمران : ١٣٣ .

والخُلق هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال الإرادية الاختيارية من حسنة وسيئة ، وجميلة وقبيحة ، وهي قابلة بطبعها لتأثير التربية الحسنة والسيئة فيها ، فإذا ما رُبيَّت هذه الهيئة على إيثار الفضيلة والحق وحب المعروف والرغبة في الخير ، ورُوضت على حب الجميل وكراهية القبيح وأصبح ذلك طبعًا لها تصدر عنه الأفعال الجميلة بسهولة ودون تكلف قيل فيه : خُلق حسن كخُلق الحياء ، والحلم والأناة والصبر والتحمل والكرم والشجاعة وما إلى ذلك .

أما إذا أُهملت أو رُبيَّت تربية سيئة حتى صارت الرذائل تصدر عنها بدون تكلف قيل فيها : خُلق سيء وذلك كالخيانة ، والكذب والطمع والجفاء والغلظة والفحش وما إلى ذلك .

وقد أثنى الله على نبيه ﷺ بحُسن الخُلق فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [١] ، وأمره بمحاسن الأخلاق فقال : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [٢] .

والرسول ﷺ يشجع على الالتزام بالأخلاق الحسنة والابتعاد عن الفاحش منها ، فقد روى الترمذي عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – أن النبيﷺ قال: "ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حُسن الخُلق، وأن الله ليبغض الفاحش البذئ" [٣]، وقال : "البر حُسن الخُلق" وسُئل عن أي الأعمال أفضل ؟ فقال : "حُسن الخُلق" وسُئل عن أكثر ما يدخل الجنة فقال : "تقوى الله وحُسن الخُلق" ، وسُئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال "الفم والفرج" [٤] .وروي الترمذي عن عائشة عن النبي ﷺ قال : "إن أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا وخياركم خياركم لنسائهم" [٥] .

---

(١) سورة القلم : ٤ .

(٢) سورة فصلت : ٣٤ .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩) ، والترمذي (٢٠٠٣) من حديث أبي الدرداء .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٠٠٥) ، وابن ماجة (٤٢٤٦) من حديث أبي هريرة .

(٥) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢) ، والترمذي (١١٦٢) ، والنسائي (٩١٥٤) ، والبخاري ٣٦٨ .

وفي الحقيقة أن الحاسة الخُلقية انبعاث داخلي فطري ، وأن القانون الأخلاقي قد طُبع في النفس الإنسانية منذ نشأتها [١] ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [٢] .

فالإنسان بفطرته يستطيع أن يميز بين أنواع السلوك وبين ما هو خير وشر وبين ما هو جميل وقبيح. غير أن هذا القانون الأخلاقي المطبوع فينا ناقص وغير كافٍ[٣] .

والإسلام يعتمد في إصلاح العام على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شيء ، فهو يكرس جهودًا ضخمة للتغلغل في أعماقها وغرس تعاليمه في جوهرها حتى تستحيل جزءاً منها . والأديان لم تخرج عن طبيعتها في اعتبار الخُلق القوي هو الضمان الخالد لكل حضارة .

وفي ذلك تنويه بقيمة الإصلاح النفسي في صيانة الحياة وإسعاد الأحياء ، فالنفس المختلة تثير الفوضى في أحكم النظم ، وتستطيع النفاذ منه إلى أغراضها الدنيئة، والنفس الكريمة تُحسن التصرف والمسير وسط الأنواء والأعاصير، ومن هنا كان الإصلاح النفسي الدعامة الأولى لتغليب الخير في هذه الحياة . ولذلك يقول المولى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾ [٤] ، فالإسلام في علاجه للنفس ينظر إليها على أنها فطرة طيبة ترمي إلى الخير ومنها نزعات طائشة تشرد بها سواء السبيل وتزين لها الشر .

فالإنسان يتنازعه تياران : الخير والشر قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا

---

(١) إحياء علوم الدين ، للغزالي جـ ٣ ، صـ ٧٢ ، ٧٣ ، ومنهاج المسلم ؛ لأبي بكر الجزائري صـ ١٣٤ ، مكارم الأخلاق ، لابن تيمية ، دار الخير ، بيروت صـ ٧٢٦ ..

(٢) سورة الشمس : ٧ ، ٨ .

(٣) دستور الأخلاق في القرآن ، د / محمد عبد الله دراز ، مؤسسة الرسالة .

(٤) سورة الرعد : ١١ .

فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [١] .

والإسلام جاء ليحترم الفطرة الخالصة ويكبح الأهواء الجامحة ، ويقيم السدود في وجهها ، وأمر بالفرائض والعبادات بوصفهما ضروريان لتدعيم الفطرة وترويض الهوى لتكوين الخُلق الحسن والمسلك المستقيم .

وحقًا فالإيمان القوي يلد الخلق القوي حتميًا وأن انهيار الأخلاق وفساد المجتمعات مدره إلى ضعف الإيمان أو فقدانه كله بحسب مقدار الشر الموجود[٢] .

ومجتمع بلا عقيدة هو مجتمع بلا أخلاق ينتشر فيه الفساد واستحلال المحرمات كما هو الآن في المجتمعات الغربية والانحلال الخُلقي الذي نسمع به كل يوم في الصحف.

كذلك يوضح لنا الرسول الكريم ﷺ بأسلوب آخر من أساليب التربية النبوية وهو أسلوب ضرب الأمثلة للتأكيد على المعنى أكثر فقال : "الخُلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد" [٣] ، "والخُلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل" [٤].

كذلك دلل الرسول ﷺ على من لم يكن فيه تلك الخصال الحسنة لا يعد مؤمنًا بل منافقًا فقال ﷺ : " آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم" [٥] .

وهكذا وجدنا القرآن والسنة – مصدرًا للتشريع الإسلامي – قد رسما الطريق القويم للمسلم ، والمنهج المستقيم للمؤمن ، وأخذا يرسمان الطريق للمسلم ماله من حقوق وما عليه من واجبات ما يجب أن يتحلى به من خصال وصفات وما يجب أن

---

(١) سورة الشمس : ٧ : ١٠ .

(٢) خلق المسلم ص ١٠ .

(٣) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف ، وأخرجه الطبراني فى المعجم الكبير (١٠٧٧٧) وهو ضعيف .

(٤) أخرجه عبد ابن حميد فى المنتخب (٧٩٧) وهو ضعيف .

(٥) أخرجه مسلم (٥٩) .

ينتهي عنه وذلك من خلال حياته ﷺ وتحري الصحابة كل ما يفعله الرسول ﷺ سواء أكان واجبًا أم مباحًا أم مندوبًا أو مسنونًا مصداقًا لقول الله تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [١] ، لم يسأله أحد ورده خائبًا ، وكان دائم البشر ، سهل الطبع ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّاب ، ولا عتاب ، ولا مداح ، قالت عائشة : ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال : لبيك ويحكي لنا أبو أمامة عن بعض خُلق رسول الله ﷺ فقال : خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئًا على عصا فقمنا له فقال : لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا. وقال : إنما أنا عبدٌ آكل ما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد، وكان يركب الحمار ، ويردف خلفه، ويعود المساكين ويجالس الفقراء ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس .. . كان ضحكه تبسمًا وكلامه فضلاً ، لا فضول فيه ولا تقصير [٢] .

وكان رسول الله ﷺ يحب الطيب والرائحة الطيبة ، وقد سيقت إليه الدنيا بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها . فأعرض عن زهرتها ومات ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقه عياله .

والأمثلة في حياة الرسول ﷺ كثيرة جدًا لا تحصى والمعاملة الحسنة لم تكن مقتصرة على المسلمين مع بعضهم البعض ولكن كذلك شملت أهل الأديان الأخرى، فقد ورد عن ابن عمر أنه ذبحت له شاه في أهله فلما جاء قال : أهديتم لجارنا اليهودي ؟ أهديتم لجارنا اليهودي ؟ سمعت رسول الله يقول : "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" [٣] ، وكذلك أمرنا الإسلام بصلة الرحم حتى وإن كان ذوي الرحم على غير

---

(١) سورة الأحزاب : ٢١ .

(٢) خُلق المسلم صـ ٣٣ ، الإحياء جـ ٣ صـ ٥٠١ .

(٣) مكارم الأخلاق للطبراني جـ ١ ، صـ ٧٥ ، ح ١٠٩٤ .

الإسلام ، فقال الله تعالى : ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [١] .

ومن أقوال الإمام ابن تيمية : " إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة " .

فالخلق هو الدين كله وهو الدنيا كلها . وقال الحسن عن حسن الخلق : حسن الخلق بسط الوجه ، وبذل الندى ، وكف الأذى .

وقــال آخر : حسن الخلق أن يكون من الناس قريبًا وفيما بينهم غريبًا . وقال آخر : هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى [٢] .

والمشكلة التي نراها في العالم الإسلامي أن هناك جفوة بين المسلم والالتزام بالأخلاق التي نادى بها الإسلام وحث عليها في الكتاب والسنة ونرى الإسلام في وادٍ وكثير من المسلمين في وادٍ آخر ، يكتفون من الإسلام بالإسم والهوية والجنسية فحسب ، بعيدين عن تعاليمه غير ملتزمين بتوجيهاته .

وهذا ما يفسر لنا النكبات التي تلاقيها الأمة كل يوم والهزائم العسكرية والنفسية، فالتمسك بالأخلاق الحميدة يُعد دعامة للرقي وأساسًا لتبوأ موقع الصدارة ، فكانت قوة السلف وسيادتهم وعزتهم نابعة من الإسلام فبالتمسك بالكتاب والسنة تحقق العزة والقوة والازدهار وهذا الكتاب ما هو إلا صورة موجزة عن الأخلاق الفاضلة الحميدة التي يجب على المسلم أن يتمسك بها ويحيا بها حتى يكون مطبقًا لدين الله ملتزمًا بشرعه ليفوز إن شاء الله بجنته ونعيمه نسأل الله أن يعيد المسلمين إلى دينهم وقرآنهم وسنة نبيهم ردًا جميلاً إنه سميع قريب مجيب .

---

(١) سورة لقمان : ١٥ .

(٢) الإحياء جـ٣ صـ ٧٧ ، منهاج المسلم صـ ٣٣ .

المبحــث الثانــي
تعريـــف علـــم الأخـــلاق

لقد ظهر علم الأخلاق واستوى بين العلوم الأخرى ، عزيز المكانة كريم الأهداف ، وحدد الفضائل والرذائل جميعًا ؛ وبين للناس أن التحلي بالفضائل هو أفضل وأعز ما يتحلى به الإنسان في الحياة الدنيا ، وأغلى ما يمكن أن يتزود بها لآخرته ، وأن الرذيلة وبال في الدنيا والآخرة ، فهو علم يوضح معنى الخير والشر ، ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصدها الناس في أعمالهم .

وكلمة أخلاق أو خلق تثير في حد ذاتها اهتمامًا كبيرًا ، ويجب أولاً أن نعرف كلمة "أخلاق" .

ولما كان كل علم من العلوم لابد أن يخضع لمفهومين ، أحدهما لغوي ، والآخر اصطلاحي .

فاللغوي يعني بيان المعنى المراد من ظاهر اللفظ عند علماء اللغة فقط ، أما الثاني : يعني ببيان ما تواضع عليه أرباب العلم موضع التعريف ، من تحديد لهذا العلم ، تحديدًا يجمع كل مسائله ، حتى لا يتخلف منها شيء ، ويمنع من دخول مسائل العلوم الأخرى فيه ، وهو ما يعبر عنه المنطقيون بالتعريف الجامع المانع .

وعلى هذا نعرف علم الأخلاق لغة واصطلاحًا .

التعريف اللغوي :

تعرض أهل اللغة لبيان معنى الخلق فقالوا : " الخلق من خلقت الشيء – أي ملسته ومنه صخرة خلقاء الملساء أي " المستقيمة والخالية من النتوء " .

وفي لسان العرب : يقول ابن منظور :" تقول للذي ألف شيئًا صار ذلك له خلقًا أي مرن عليه ، ومن ذلك الخلق الحسن" وإن خلق الإنسان هو ما قدر عليه ورتب عليه ، فكأنه استقر وزال عنه الشك .

فالأخلاق : جمع خلق ، ومن معانيه في اللغة : الطبع والسجية والعادة .

أ – الطبع : وهو الصفة الراسخة التي جُبل عليها الإنسان دون إرادة منه ودون قصد إليها أو سعي في طلبها .

ب – والعادة : هي الصفة الراسخة التي يكتسبها الإنسان عن طريق المران والتدريب أي بإرادته وقصده .

ج – أما السجية : بضم اللام وسكونها ومحيطها أوسع يشمل المطبوع والمكتسب الذي صار عادة . ويقال عند الحديث عن السجية ، وذلك أن خلق الإنسان أمر قد سكن إليه واستقر عليه .

وقد تفسر كلمة خلق بمعنى الدين أيضًا :

ومن ذلك : تفسير ابن عباس – رضي الله عنه – لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ أي "دين عظيم" [1] .

ويظهر أن اللغة – أي لغة – إذا دلت بعض ألفاظها ، على عدة معان ، لم تكن هذه الدلالة واحدة في كل المعاني .

ومن هنا يظهر أن القائلين بعدم الترادف في اللغة العربية كانوا على حق .

فهناك فرق في المعنى بين الطبع والسجية ، والعادة والدين . فالأول (الطبع) ظاهر في الأمور الفطرية التي زود الإنسان بها .

والثانية والثالثة (السجية – العادة) ، تظهران فيما هو بالطبع وما هو بالتعود بعد اكتسابه .

كما أن العلاقة بين الدين والأخلاق كعلامة الأصل بالثمرة .

---

(1) دراسات في فلسفة الأخلاق ، د/ محمد عبد الستار نصار ، صـ ١٥ ، جامعة الأزهر ـــ جامعة قطر ، مكتبى لطباعة الأوفست .

واختلاف أواضع الألفاظ ، يوحي كذلك بالفرقة في المعنى ، فالخلق والتخلق ، يشير :

أولهما : إلى ما هو بالطبع .

وثانيهما : إلى ما هو مكتسب .

ولا شك أن الأمور الكسبية تكون في نشأتها الأولى غير مستقرة استقرار الأمور الطبيعية ، حتى إذا أصبحت عادة ، قاربت في هذه الحالة ما هو بالطبع .

وليس هذا المعنى قاصرًا على اللغة العربية وحدها ، بل يشاركها في ذلك بعض اللغات الحية ، ففي اللغة الفرنسية كلمة **Ethique** ، وهي اسم هذا العلم في هذه اللغة وهذه الكلمة ترجع إلى كلمة **Ethos** الإغريقية ، ومعناها "العادة" [١] .

أما التعريف الاصطلاحي لعلم الأخلاق :

اختلفت وجهات النظر في تعريف هذا العلم ، تبعًا لاختلاف الغاية منه في نظر المعرفين ، ثم من ناحية أخرى تبعًا لنوع ثقافتهم ، ويكاد معنى "الخلق" في الاصطلاح يقترب بل يتساوى مع معناه في اللغة .

فالذين يــتأثرون بالمعنى اللغوي قالوا في تعريفه :" هو علم العادات" وهذا التعريف يضفي على علم الأخلاق نوعًا من التقريرية ، في الوقت الذي تواضع فيه أغلب الباحثين على أن هذا العلم إنما هو علم معياري ، ويعنون بذلك أنه لا يبحث في أعمال الإنسان الإرادية التي صارت عادات وتقاليد ، من حيث هي أمور حاصلة في الواقع ، وإنما يبحث في كيفية توجيهها صوب الطريق السوي ، على نهج من قواعد ، وقوانينه ، ثم يحكم عليها حسب المقاييس التي يضعها .

وهذا التعريف إذا أردنا أن نقومه على سنن المنطق فنقول "إنه تعريف غير جامع"

---

(١) مباحث في فلسفة الأخلاق صـــ٣ ، د/ محمد يوسف موسى .

لذلك نجد تعريفات كثيرة ولكل تعريف له أوجه قصور .

يعرف علم الأخلاق بأنه :

– علم الخير والشر : عرف بعض العلماء علم الأخلاق أنه علم يبحث فيه عن الخير والشر والحسن والقبيح وأن الإنسان عن طريق هذا العلم يستطيع أن يميز بين كل منها فيسير في طريق الخير والفضيلة ويبتعد عن طريق الشر والرذيلة .

– علم الإنسان : ومقصدهم من ذلك أنه علم يبحث في الأعمال التي تصدر عن الإنسان ويصدر حكمه على هذه الأعمال الإنسانية ويرسم طريق السعادة للإنسان ويرشده إلى أسبابها وهذا التعريف للكاتب الفرنسي "باسكال" وهذا التعريف أوسع بكثير من دائرة علم الأخلاق لأنه يتناول سائر العلوم التي تدخل في دائرة الإنسان .

– علم الواجب والواجبات : ومقصدهم من ذلك أنه يهدي الإنسان إلى ما يجب عليه عمله وما يجب عليه تركه أي الأشياء التي ينبغي أن يفعلها والأمور التي سينبغي أن يبتعد عنها كي يسلم من عذاب ربه [١] .

وهذه التعريفات على كثرتها ليس فيها تعريف يصلح ليكون تعريفًا لعلم الأخلاق وغير منطبق عليه شروط التعريف العلمي بأن يكون "جامعًا مانعًا" جامعًا لكل جزئيات المعرف ومانعًا من دخول غيره فيه .

– فالتعريف الأول :

ضيق لا يشمل جميع مباحث علم الأخلاق لأن هذا العلم وإن كان يبحث في الخير والشر فهو أيضًا يبحث في السمات التي إن توفرت في عمل ما كان خيرًا والتي إن

---

(١) الأخلاق في التصور الإسلامي د/ آمنة نصير ص ٤ – ٦ (بتصرف) منهج التربية النبوية للطفل ، تقديم عبد الرحمن حسن حبنكة وآخرون ص ١٥٧ .

توفرت في سلوك ما كان شرًا كما يبحث في الأمور التي ينبغي أن يكون عليه السلوك الفاضل أي المقاييس الأخلاقية فهو مانع غير جامع .

كذلك التعريف الثالث يؤخذ عليه ما أخذ على التعريف الأول .

أما التعريف الثاني فهو وإن كان جامعًا إلا أنه غير مانع لأنه أدخل في علم الأخلاق ما ليس من اختصاصه لعلوم الحياة والطب النفسي وغيرهما كما شمل ما ليس للإنسان دخل فيه مثل لونه وحجمه وسائر الأعمال الاضطرارية وتلك الأعمال لا يمكن أن تدخل في نطاق الأخلاق ولا يمكن أن يحاسب الإنسان ثوابًا أو عقابًا على ما ليس في وسعه [١] .

وهناك تعريفات أخرى اصطلاحية وهي :

قال حاجي خليفة في مادة أخلاق عن ابن صدر الدين الشروان المتوفى سنة ١٠٣٦هـ : هو " علم بالفضائل وكيفية اقتنائها لتتحلى النفس بها وبالرذائل وكيفية توقيها لتتخلى عنها " [٢] .

وعرفه ابن المبارك (رحمه الله تعالى) بقوله :" هو بسط الوجه وبذل المعروف وكف الأذى" [٣] .

وقال الحسن البصري (رحمه الله تعالى) " حقيقة حُسن الخُلق بذل المعروف وكف الأذى وطلاقه الوجه " [٤] .

ومسكويه يعرِّف الأخلاق في كتابه "تهذيب الأخلاق" بأنه : (حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية) ثم بيَّن مسكويه أن الحال ينقسم إلى قسمين:

---

(١) فن الفلسفة والأخلاق ، مرجع سابق ص ١٣٢ ، الأخلاق في التصور الإسلامي ، مرجع سابق صـ٦ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ص ١٤ ، الشعب ص ٤٤٥ .

(٣) سنن الترمذي (٢٠٠٥) .

(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية ، ابن مفلح ٢٠٧/٢ .

– منها ما يكون طبيعيًا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو الغضب ، ويهيج من أقل سبب ..

– ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدريب وبالروية والفكر ثم يستمر عليه حتى يصير ملكة وخلقًا . فهو يتحدث عن الأخلاق المكتسبة التي تنمو وثبت بالسعادة والاستمرار [١] .

ويقول الغزالي في الإحياء في معنى حُسن الخُلق : الخُلُق والخَلْق عبارتان مستعملتان معًا يقال : فلان حسن الخُلُق والخَلْق أي حسن الظاهر والباطن . فيراد بالخَلق الصورة الظاهرة ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة ، وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة . ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة

وبناء على ذلك فالخلق لابد فيه من أربعة أمور عند الغزالي قوة العلم ، قوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل .

فالخلق إذن عند الغزالي ليس هو فعل الحسن أو القبيح أو التمييز بينهما وإنما الهيئة النفسية التي تستعد بها النفس ؛ لأن يصدر عنها الحسن أو القبح [٢] .

وعرفه الجرجاني بقوله : " الخُلُق عبارة عن هيئة في نفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية . فإن كانت الهيئة بحيث تصدر منها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعًا سميت تلك الهيئة خلقًا حسنًا . وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئًا " [٣] .

وقال القرطبي : " الأخلاق أوصاف الإنسان التي يعامل بها غيره ، وهي محمودة

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، ابن مسكويه ص ٤١ ، مكتبة الثقافة الدينية .

(٢) الإحياء للغزالي جـ ٣ ص ٧٧ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١٠١ ، مكتبة دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط : ١ .

ومذمومة ، فالمحمـــودة على الإجمال أن تكـــون من غيرك على نفسك فتنصف منها ، ولا تنصف لها ، وعلى التفصيل : العفو والحلم والجود ، والصبر ، وتحمل الأذى ، والرحمة والشفقة وقضاء الحوائج ، والتوادد ، ولين الجانب ونحو ذلك ، والمذموم منها ضد ذلك " [١] .

وعرفه الأصفهاني : بأنه اســـم للهيئة الموجـــودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر " .

هذا وعلى ضوء هذه التعريفات يمكن استخلاص مفهوم عام للأخلاق ، هو ما جاء في دائرة معارف البستاني ، وهو : علم يبحث في الفضائل وكيفية اكتسابها ليتحلى الإنسان بها والرذائل وكيفية اجتنابها والبعد عنها ويوضح المقياس الذي تقاس به أعمال الإنسان الإرادية من حيث هي خير أو شر مع تحديد مسئولية الفاعل وجزائه على هذه الأعمال والغاية التي يتوخاها علم الأخلاق من كل ذلك هو تحقيق السعادة النفسية والأمن النفسي في حياته الآجلة والعاجلة .

ومن أجمع التعاريف وأحسنها التي جمعت بين عناصر الخلق كلها تعريف العلامة ابن القيم (رحمه الله تعالى) حيث قال : " هيئة مركبة من علوم صادقة ، وإرادات زكية ، وأعمال ظاهرة وباطنة ، موافقة للعدل والحكمة والمصلحة ، وأقوال مطابقة للحق تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات فتكتسب النفس بها أخلاقًا هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها " .

ونشير إلى أن هناك فرق بين كلمتي "خَلْق وخُلُق" فهما وإن تقاربتا في النطق إلا أن الأولى يراد بها الصورة الظاهرة المدركة بالحواس ، والثانية يراد بها الصورة الباطنة المدركة بالبصيرة .

وكذلك هناك ارتباط وثيق بين مفهوم الأخلاق ومفهوم الإيمان فأي تقصير في

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/٤٥) .

أحدهما لابد أن يكون له صدى في الجانب الآخر ولذلك يقول الرسول ﷺ : " أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم حلقًا" .

ومن هنا كانت الأخلاق الإسلامية صدى للإيمان والعمل به ومقتضياته . كما هي صدى لمشاعر سامية وتعبير عن أحاسيس عميقة بالغة العمق في ارتباطها بالله سبحانه وتعالى .

المبحــث الثالــث
موضــوع علــم الأخــلاق

من الثابت أن العلوم تتمايز بتعريفاتها وموضوعاتها ، وقد سبق أن عرفنا علم الأخلاق عن غيره من العلوم ، فلنتبع ذلك ببيان موضوعه حتى يكون التمييز أكمل وأتم . وموضوع كل علم ، هو ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية مثال : لو سئل طبيب عن موضوع علم الطب لأجاب بأنه : "بدن الإنسان" لأن هذا العلم (الطب) يبحث عن أحوال البدن وما يلابسها من الصحة والمرض وأيضًا لو سئل عالم الفقه عن موضوع علمه لأجاب بأنه : الأحكام الشرعية من حيث الوجوب والحرمة والندب والإباحة .. الخ " [١] .

إذن موضوع الأخلاق أنه يعني بأعمال الإنسان الإرادية الصادرة عن تفكير وروية أو بعبارة أخرى هو جملة القواعد والسلوك التي ترسم لنا طريق السلوك الحميد وتحدد لنا براعته وأهدافه مكتملة ، وقيل موضوعه البحث عن أنواع الملكات الفاضلة التي يجب علينا التحلي بها كالإخلاص والصدق والعفة ... الخ . ويسمى "علم الأخلاق العملي" [٢] .

ولكن هل كل ما يصدر عن الإنسان صالح لأن يحكم عليه بالخير والشر ؟

والجواب أن الأعمال التي تصدر عن الإنسان متعددة منها : الأعمال الإرادية ، وهي التي تقع بإرادة الإنسان واختياره مثل تناول الطعام والشراب واختيار العمل والمسكن والذهاب إلى المسجد وذهاب المريض إلى الطبيب والكذب وشهادة الزور والحق وقول الصدق وغيرهم وهناك أعمال غير إرادية والتي تصدر عن الإنسان لا

---

(١) دراسات في فلسفة الأخلاق / د/ محمد عبد الستار نصار (بتصرف) جامعة الأزهر – جامعة قطر ، مكتبى لطباعة الأوفست .

(٢) الأخلاق ، أحمد أمين صـــ١٢ ، وانظر كلمات في الأخلاق الإسلامية ، د/ كمال عيسى ص ٩ .

بإرداة منه وليس له دخل في حدوثها وذلك كالتنفس والدورة الدموية وغيرها .

فأي هذه الأعمال يصلح لأن يكون موضوعًا لعلم الأخلاق ؟

والجواب : أن الأعمال الإرادية وما يمكن الاحتياط له من الأعمال المشتبهة فيدخل في دائرة علم الأخلاق ، أما ما يصدر بدون إرادة ولا يمكن الاحتياط له فليس موضوعًا لعلم الأخلاق فهي أعمال اضطرارية فلا نستطيع أن نقول أن فلانًا الأبيض صالح والأسود طالح [١] .

وليس هذان النوعان من الأعمال – الإرادية واللاإرادية بقسميها الآلية والمنعكسة – هما كل أنواع الأعمال ، فإن هناك أعمالاً تشتبه الأعمال الإرادية واللاإرادية ، فهل يا ترى يشملها علم الأخلاق ، فيحكم على فاعلها بالخيرية أو الشرية أو لا يشملها ، فيكون فاعلها ليس موضع المؤاخذة الأخلاقية ؟

سوف أبين الرأي الصحيح بعد بيان هذا النوع وسأضرب له الأمثلة الآتية :

١ – أعمال احتمال يأتيها الإنسان وهو نائم ، سواء أكانت هذه الأفعال خيرًا ، كأن يطفئ نارًا لو تركت لأحدثت خسارة جسيمة ، أم شرًا ، كأن يشعل نارًا فتحرق المنزل وما جاوره ، فهل هذه الأعمال إرادية أم غير إرادية ؟

٢ – هناك أعمال تصدر عن إنسان مصاب بداء النسيان سواء أكانت تركًا ، كمن علم أن صديقًا له يأتمر به الأعداء . وعلم موعد تنفيذ مؤامراتهم ، ولكنه نسي تنبيه صديقه إلى ذلك ، أم كانت فعلاً كمن يُقدِّم إلى إنسان معروفًا ، غير قاصد له ، لاستيلاء أفكار أخرى عليه ، فهل الترك والفعل في هذه الحالة عملاً إراديًا أو غير إرادي ؟

٣ – الأعمال التي تصدر من شخص غير ضابط لانفعالاته ، كمن يثور لأوهى الأشياء ،

---

(١) في الفلسفة والأخلاق ، د/ إبراهيم محفوظ صـ ١٣١ .

مع رجاحة عقله، وكمال إراداته ، فهل هذه الأعمال إرادية أم غير إرادية؟

٤ – وهناك أعمال تصدر من شخص مستغرق الفكر كمن يدمن القراءة أو اللعب المباح ، إلى درجة أن ينسى فعل الواجب أو طلب الحق [١] .

– فهل يا ترى من أي النوعين السابقين كل هذه الأعمال . أهى من أنواع الأعمال الإرادية ، فيكون الإنسان محاسبًا عليها ، أم من الأنواع الغير إرادية التي لا محاسبة عليها ؟

والجواب عن ذلك: إنها من نوع الأعمال اللاإرادية إذا تأكدنا عدم القصد فيها.

فالنائم في المثال الأول: ليس متعمدًا لإحداث الإحراق ليؤاخذ على هذا الفعل ، لذلك لا يحكم على عمله بأنه خير أو شر، ويقاس على فعل النائم بقية الأفعال التي ذكرناها

وليس الأمر ينتهي عند ذلك ؟ بأن لا يؤاخذوا على نتائج أعمالهم ، بل أنهم مؤاخذون على مبادئها ، بمعنى أن النائم مثلاً مؤاخذ في أثناء يقظته على عدم حيطته في إبعاد مصادر الأعمال الخطرة التي يأتيها أثناء نومه ، ويقاس عليه أيضًا جميع الأعمال التي ذُكرت في الأمثلة السابقة .

إذن المسئولية الخلفية عن هذه الأفعال لم تتجاوزها مطلقًا ، بل انتقلت من نتائجها إلى مقدماتها ــ يجب اتخاذ الحيطة والحذر وعدم القصد ــ وهذا يوافق قول بعض المفسرين في بيان قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [٢] .

وهذا يدل على أن المسئولية الخلقية لا توجد إلا حيث وجدت الإرادة ، فما لا دخل لإرادة الإنسان فيه لا يؤاخذ عليه بمدح أو ذم ، بمعنى لا يُمدح الشخص لطوله ، ولا يُذم لقصره .

---

(١) كتاب الأخلاق ، د/ أحمد أمين صـــ ٥٤ .

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٨٦ .

المبحث الرابع : غاية وثمرة علم الأخلاق على الفرد والمجتمع وأقسامه

أولاً : غاية وثمرة علم الأخلاق :

الغاية والفائدة والثمرة والمنفعة بمعنى واحد . فهل هناك من غاية أو فائدة أو منفعة تُرجى من علم الأخلاق ؟

حيث أن الأخلاق من الموضوعات التي تشغل مكانًا كبيرًا من اهتمام الإنسان ، وتستحوذ على تفكيره ، أو ينبغي أن تكون كذلك ، فالإنسان لا يستطيع أن يستغني عن الأخلاق في أية لحظة من لحظات حياته ، ولا يستطيع أن يستغني عن مثل أعلى في سلوكه أو معيار للحكم على أفعاله وأفعال الناس بالخير أو الشر .

ولا يمكن أن يتصور المرء إنسانًا يعيش بلا ضمير يحاسبه إذا أخطأ ويلومه إذا استمر في الخطأ وتمادى في الشر .

ونستطيع أن نستخلص بعض ثمـــــار التمسك بأمهات الأخلاق والقيم الفاضلة فيما يلي :

١ – تحقيق المثل الأعلى في جانبيه يثمر الحياة الطيبة ، ويحقق السعادة والسيادة ، والقيادة ، والتمكين في الأرض .

٢ – إن دراسة علم الأخلاق لها فائدة عظيمة في ترشيد السلوك الإنساني وتوجيهه نحو القيم الأخلاقية والمثل العليا على أساس من الفهم والوعي والإدراك .

٣ – تقوية إرادة الإنسان على الخير وسلوك الطريق القويم ، وتنشيط العزيمة على المضي في سبيل الفضيلة ، والاهتداء بها في أعمالها .

٤ – إن دراسة الأخلاق تكسب صاحبها القدرة على الدقة في تقدير الأعمال الأخلاقية ونقدها من غير أن يخضع في حكمه للعرف أو العادة أو يتأثر بحكم الزمان والمكان.

٥ – إن دراسة الأخلاق لا تجعل جميع الناس فضلاء فهذا أمر يعتمد بدرجة كبيرة على

الاستعداد الشخصي لكل فرد ولكنها تشد عزم بعض فتيان كرام على الثبات فـــي الخير ، وتجعل القلب الشريف بالفطرة صديقًا للفضيلة وفيًا بعهدها [١] .

٦ – أن كل ما كلفنا الله عز وجل هو تأكيد لإنسانيتنا ، ورفع لمستواها ، والسير في خط التميز عن الحيوان – التميز العقلي والروحي والخلقي والسلوكي والاجتماعي – الذي يجعل للحياة معنى ، وللإنسانية خصائصها الواضحة .

٧ – الأخلاق الإسلامية ارتقاء بالإنسان إلى كمالاته كلها . لأنه أوجب له حقوقًا نحو الله ، ونحو الآخرين وشرع عليه حقوقًا لله وللإنسان .

٨ – تفجير لطاقات الإنسان كلها في طريقها الصحيح : العلمية والعقلية والروحية ، والنفسية ، والجسدية ، فلا تبقى طاقة معطلة : العلم فريضة ، والتفكير فريضة ، والأخلاق الفطرية اكتسابها والتحقق بها فريضة ، وتدريب الجسم فريضة .

٩ – بالأخلاق الإسلامية وحدها يحقق الإنسان حكمة وجوده ، ويعثر بها على محله الصحيح في الوجود وهو أنه سيد الكون وعبد الله ، وخليفته في أرضه الذي سخر له كل ما في الكون .

١٠ – أنه في ظل الأخلاق الإسلامية وحدها يؤدي الإنسان لكل ذي حق حقه حيوانًا كان أو إنسانًا أو جمادًا أو نباتًا فضلاً عن قيامه بحقوق رب العالمين [٢] .

١١ – دراسة علم الأخلاق تعرف الإنسان الخير والشر وتعرفه كذلك بميدانهما وحدودهما . حسب قوة وإرادة وعزيمة المسلم .

١٢ – يكفي المسلم شرفًا وتمسكًا بتلك الأخلاق أنها ربانية شمولية جاءت من القرآن والسنة مصدري التشريع الإسلامي .

---

(١) مقدمة في علم الأخلاق ص ٢٢ .

(٢) الإسلام ، سعيد حوي ، جـــ١ ص ٧٦ .

١٣ – غاية الأخلاق كما قال الإمام الغزالي أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون شيء أحب إليه من لقاء الله تعالى عز وجل فيكون عمله موزونًا بعمل الشرع والعقل [١] .

ولتحقيق هذه الثمار كانت الحاجة إلى البحوث الأخلاقية في الوقت الذي بدأ فيه الناس الإنحراف عن الأخلاق شيئًا ما .وبدأ التشكيك في الأخلاق السائدة ، وبدأ التقليد الأعمى لكل ما هو غربي والانبهار بكل ما هو أجنبي.

ولقد حظيت القيم الأخلاقية بعناية بالغة في الإسلام باعتبارها أساس بناء الشخصية المسلمة من أجل ذاتها، ومن أجل الآخرين. وهي سياج يحمي منجزات المجتمع الإسلامي الحضارية والتنموية من الانهيار والتسيب والانحلال ، فهي ضابط لكل جهد مبذول ، تضبط إيقاعه وتحوله إلى فعالية حقيقية ، يُلحظ أثرها في حياة الناس قدمًا نحو تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة .

ثانيًا : أقسامه :

عرفنا سابقًا أن الأخلاق منها فطري موجود أودعها الله في جبلة الإنسان ومنها مكتسب وهذا يرتبط بدور المربين والمشرعين وأهل الفكر في إعلاء بعض الغرائز والسمو بها في الإطار الذي شرعه خالق الخلق ، ففي شرع الله الأساس في إصلاح البشرية ولقد درج علماء الأخلاق القدامى والمحدثين على تقسيم علم الأخلاق إلى قسمين :

١ – الجانب النظري .

٢ – الجانب العملي .

القسم الأول : الجانب النظري : (الأخلاق النظرية)

فهو يختص بالبحث في ماهية الخير والشر ووضع قواعد السلوك ومقاييس الأعمال

---

(١) الإحياء ، الإمام الغزالي جـ٣ ص ٨٥ ، ٨٦ .

وبالبحث في الضمير الإنساني حقيقته ومظاهره من عواطف مختلفة كالرضا والاغتباط والسرور الداخلي لفعل الخير ، والألم والتأنيب عند فعل الشر ، كما أنه يعني بتحديد غاية الإنسان من هذه الحياة ، وكماله الذي ينشده والذي تتحقق به سعادته وما يتعلق به من أبحاث [١] .

وكذلك يبحث في ماهية الشر والخير ، والمقاييس التي تقاس بها الأعمال لبيان خيرها وشرها ، كما يبحث في الحق والواجب وما يتصل بهما .

كل هذا مع بيان النقد الذي يوجه إلى النظريات والآراء المختلفة التي تواردت على هذه المسائل ، ثم يحاول إيجاد حلول لما لم تتقارب فيه الآراء من المشاكل الأخلاقية .

والقرآن في هذا الجانب لا يكتفي بأن يضع قاعدة السلوك على وجه أكثر شمولاً وتفصيلاً كما لم يفعله أي تعليم عملي فقد وجدناه يرسى تحت هذا البناء الضخم قواعد من المعرفة النظرية أعظم متانة وأشد صلابة [٢] .

القسم الثاني : الجانب العملي (الأخلاق العملية)

فيدرس الواجبات المختلفة كواجب: الإنسان نحو نفسه، ونحو أسرته، ونحو وطنه، ونحو الإنسانية جمعاء ، ثم واجبه نحو الكائنات الأخرى الحية كالحيوان وأخيرًا واجبه نحو خالقه ، وكذلك يبحث في الحقوق ، كحق الحياة والملك ... الخ وبالجملة يختص بالرقابة لممارسة الجانب النظري ومدى تطبيقه في الحياة الواقعية للفرد والجماعة بحيث يكون من شأنه الحكم بمطابقة الفعل أو عدم مطابقته لقانون الأخلاق، وبموافقته أو عدم موافقته لمعان الحق والواجب ولمقياس الأخلاق سواء تعلق ذلك بالفرد أو الجماعة [٣] .

فعلم الأخلاق علم نظري من ناحية وعملي من ناحية أخرى ؛ فهو نظري حين

---

(١) العقيدة والأخلاق د، محمد بيصار ص ٢٢٥ .

(٢) دستور الأخلاق في القرآن الكريم ص ١٦ .

(٣) مباحث في فلسفة الأخلاق ، د/محمد يوسف موسى ص ١٢ ، دراسات في فلسفة الأخلاق ، د/ محمد عبد الستار نصار ، جامعة الأزهر ــ جامعة قطر ، ص ٢٢ – ٢٤ (بتصرف شديد) .

يحدثك مثلاً عن الضمير فيقول لك : أنك تحمل في نفسك قانونًا ومحكمة تحكم ببراءتك أو بإدانتك بحسب الأحوال ولها من القوة التنفيذية ، أما الرضا الجميل بأنك عملت خيرًا وأما الندم ووخز الضمير على كونك عملت شرًا .

وأنه علم عملي حين يطلب منك أن تضبط سيرك على مقتضى قواعده ومقاييسه وأن تنقح طبائعك وتخلصها مما يفسدها ويحطها عن مرتبة الإنسانية .

إذن فعلم الأخــلاق علم وفن . علــم من جهــة معرفة القواعــد ، وفن من جهة تطبيقها [١] .

ويؤكد هذا الكلام الدكتور الأهواني حيث يقول " الأخلاق نظرية وعملية ولم ينص الإسلام على أخلاق نظرية منفصلة يتبعها السلوك العملي ويستمد قوته من تلك النظريات المقررة وإنما رسم للناس قواعد العمل الصالح الذي ينبغي أن يسيروا عليه ومرجع المسلمين في ذلك هو القرآن الكريم أولاً ثم السُنة المكملة للكتاب . والقرآن زاخر بهذه القواعد العملية التي تتناول أغلب أحوال الناس في معاشهم وفي صلاتهم بغيرهم من الناس ومعاملتهم بعضهم بعضًا " [٢] .

ونظرًا لاهتمام علم الأخلاق بالجانب العملي إلى جانب عنايته بالجانب النظري اهتم به المربون والمرشدون في شئون التربية نظرًا لتقويم سلوك الإنسان .

المبحــث الخامــس

هــل الأخــلاق فطريــة أم مكتســبة

اختلف العلماء قديمًا وحديثًا فلاسفة وغير فلاسفة للإجابة عن هذا السؤال ولذلك نستعرض بعض هذه الأقوال ثم نعرض رأي الإسلام في ذلك .

---

(١) تأملات في فلسفة الأخلاق ، د / منصور رجب ، ص ٢٨ .

(٢) دراسات في علم الأخلاق د/ عزة محمد حسن ، مدرس العقيدة والفلسفة – بنات الأزهر طـ١ ١٩٩٣ نقلاً عن التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابس ص ١٠٣ ، د/ أحمد فؤاد الأهواني طـ ١ ص عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ١٩٥٥ .

يقول الفيلسوف الألماني (شوبنهاور) : يولد الناس أخيارًا وأشرارًا .. كما يولد الحمل وديعًا ، والنمر مفترسًا وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم كما يصف التاريخ الطبيعي حياة الحيوان . فلقد ذهب (شوبنهاور) إلى تقرير أن علم الأخلاق علم نظري بحت ، لا يحمل في طابعه أي مطلب عملي ، شأنه في ذلك شأن المنطق والميتافيزيقا، حتى ليمكن أن يطلق على نظريته هذه اسم "الميتا أخلاق" أي ما وراء الظواهر السلوكية فهو يذكر أن مبدأ السلوك الأخلاقي فطري في الإنسان ويشير إلى ما يمكن أن يسمى بالجبرية الأخلاقية ، وهي فكرة تحمل في طياتها أكبر الخطر على الحرية والوعي الإنساني . فهو يصور البشرية كلها على أنها مطبوعة على ذلك ولا تستطيع التحول أو التطور ، وهذا أمر غير مقبول لأنه ينافي الحكمة من إنزال الكتب وإرسال الرسل ووضع القوانين وسن الشرائع وقيمة عمل المعلمين والمربين ، فحاشا أن يكون ذلك كله عناء بغير جدوى أو تكون دراسة الأخلاق نفسها ملهاة أو شبه ملهاة .

ويقول (كانتْ) : إن الذي يشاهد موقف الإنسان في ظرف معين ويعرف سوابق تصرفاته في مثل هذا الموقف يستطيع أن يتنبأ تنبوءا هادفًا بما سيفعله في هذا الظرف المعين كما يتنبأ العالم الفلكي بكسوف الشمس وخسوف القمر في ساعة محددة .

ويقول الفيلسوف الهولندي(سبينوزا) : أن أفعال الناس كغيرها من سائر الظواهر الطبيعية تحدث ويمكن استنتاجها بالضرورة المنطقية الهندسية كما يستنتج من طبيعة المثلث أن زواياه الثلاث تساوي زاويتين قائمتين .

فهؤلاء الفلاسفة الأوربيون غلبت المادة على عصرهم ورأوا ما فيها من قوانين علمية ثابتة وأرادوا أن يبسطوا نتائجها على سائر العلوم حتى الاجتماعية والأخلاقية ، فهم لذلك يصورون لنا البشرية عاجزة عن التحول والتطور وهذا أمر غير مقبول عقلاً وشرعًا لأن هذا ينافي الحكمة والضرورة في إنزال الكتب وإرسال الرسل ووضع الشرائع والقوانين وحاشا أن يكون ذلك كله عناء بغير جدوى أو تكون دراسة الأخلاق نفسها

ملهاة أو شبه ملهاة [١] .

وأول ما نلاحظه على هذه الأقاويل شذوذها ومخالفته لما أجمع عليه المفكرون في نظرتهم للأخلاق مع اختلافهم في شأن الفطرة الإنسانية وانقسامهم إلى مذاهب ثلاثة:

١ – إن الإنسان خير بطبعه والشر عارض له ، وهو مذهب المتفائلين أمثال جان جاك روسو وسقراط ، وذهب إليه ابن تيمية وابن القيم وجماعة من السلف [٢] .

٢ – إن الإنسان شرير بطبعه والخير طارئ عليه ؛ وهو مذهب المتشائمين كالبوذية وأشباههم وكذلك مذهب أفلوطين المصري ومعظم رجال الكنيسة المسيحية حيث يرون أن الإنسان منذ خطيئة آدم قد صار شريرًا لا حيلة له في إصلاح نفسه فلا تصير إلى الخير إلا بالتأديب والتهذيب أو عوامل البيئة والوراثة .

٣ – إن الإنسان خُلق مستعدًا للخير والشر جميعًا وهو مذهب جمهور الفلاسفة وعلماء النفس والتربية في العصر الحديث وهو مذهب وسط سبقهم إلى إقراره والقول به كلاً من الغزالي وابن مسكويه وابن خلدون . وهذا هو الرأي الذي نميل إليه لأنه موافــق لما قرره الإسلام . فالإسلام يقرر أن الإنسان خُلق إلى الخير أميل إلى الشر ، والنصوص الإسلامية تؤكد هذا المذهب الوسط ، قال تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [٣] ، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [٤] ، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [٥] ، والفطرة الإنسانية تؤيد هذا ، قال رسول الله ﷺ : " كل مولود يولد على الفطرة " [٦] ، فنجد بعض الأطفال

---

(١) الأخلاق في التصور الإسلامي ص ٧ ، ٨ .

(٢) انظر : كلمات في الأخلاق الإسلامية ص ٩١ ، ٩٢ ، العقيدة والأخلاق ص ٢٢٦ ، ٢٣٠ .

(٣) سورة الإنسان آية ٣ .

(٤) سورة البلد آية ١٠ .

(٥) سورة الشمس الآيتان ٧ ، ٨ .

(٦) أخرجه مسلم / ٤/ ٢٠٤٨ عن أبي هريرة ألفاظ عديدة .

يتصفون في صغرهم بالجبن أو البخل أو الحياء أو الشجاعة بدون تدريب ثم يأتى دور الدين والتربية والبيئة لتشكيل وتهذيب هذه الغرائز الفطرية التي خلق الإنسان مزودًا بها ، فالإنسان فيه الجانبان الفطري والكسبي ، والاكتساب يأتي بالتعلم والتوجيه . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [١] .

ولكن هل يمكن التأثير على الأخلاق الفطرية ؟ أو هل يمكن تقويم الأخلاق واكتساب الجيد منها والتخلي عن السيء .

والجواب : إن الفطرية إذا أريد بها الغريزة فإن التأثير فيها بالتغير غير ممكن عادة. ولكن الممكن هو التحكم في الغريزة حتى يكون على مستوى وسط بدون إفراط وتفريط أما إذا أريد بالفطرية الميول والرغبات فإنه يمكن التأثير فيها بالتعديل والتربية . ولذلك كان جهاد النفس من أعظم ألوان الجهاد وأولاه .

والنفس الإنسانية قد خُلقت قابلة للكمال . وفي ذلك يقول الغزالي بأن النفس الإنسانية ناقصة بالفعل ولكنها منطوية على إمكانيات الكمال ، قابلة بالقوة لما شاء الله من درجات الترقي بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم . ولذلك جعل تسوية النفس من فعل البارئ أما تزكيتها وتسويتها من عمل الإنسان [٢] .

والخلاصة أن الشرع أمر بالتخلق بالأخلاق الحسنة ونهي عن التخلق بالأخلاق الرديئة ولو لم يكن ذلك ممكنًا ومقدورًا للإنسان لما ورد به الشرع فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ، ولكن مع هذا فإن الناس يتفاوتون في مقدار أهليتهم وقدرتهم واستعدادهم لاكتساب الأخلاق أو تعديلها كما يختلفون في مدى أهليتهم وقدرتهم واستعدادهم لتلقي العلوم المختلفة أو إدراك الحقائق الدقيقة نظرًا لتفاوت ذكائهم [٣].

---

(١) سورة التين الآيات ٤ – ٦ .

(٢) الإحياء ، الغزالي جـ ٣ ص ٨٨ .

(٣) أصول الدعوة د/ عبد الكريم زيدان ص ٩٣ .

فإن الإنسان لا يخلو من الجانب الكسبي الذي يربي عليه الإنسان ويدرب بأساليب التربية المختلفة ، والتي منها التقليد والتلقين والوعظ والإرشاد . فالإنسان يحمل مجموعة سلوك مستمدة من جانبين جانب فطرى وجانب مكتسب والاكتساب يأتي بالتعلم والتوجيه . وقد قال الرسول ﷺ :" مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب فيها طائفة أخرى إنما قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فيعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ومن لا يقبل هدى الله الذي أرسلت به [١] .

وقد يجبل بعض الناس على أخلاق بحيث تكون بارزة فيهم وظاهرة فيعرفون بها، والدليل على هذا حديث رسول اللهﷺ ، وقد جاء فيه أن رسول الله ﷺ قال لأشج عبد القيس "إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى ورسوله الحلم والأناة" قال يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم الله تعالى جبلني عليهما؟ قال رسول الله ﷺ "بل الله جبلك عليهما" فقال : الحمد لله الذي جبلني على خصلتين يحبهما الله تعالى ورسوله" [٢]،[٣].

أما الذين يتكلمون عن الطبع الذي لا يتغير إنما يتحدثون عما تؤثره العادة في الإنسان حيث أن التعود المستمر للإنسان على سلوك معين يصبح جبلاً فيه وتتطبع عليه الشخصية حتى يصير جزء منها. أما الفطرة فهي سليمة نقية كما شكلها المولى عز وجل كما قال تعالى : ﴿ ... فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ... ﴾ [٤] .

---

(١) تفسير البغوي جـ٢ ص ٢٤٥ ، شرح السنة للبغوي جـ ١ ص ٢٨٧ ، تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٦ ، الدر المنثور جـ ٣ ص ٥٤ .

(٢) الإحياء جـ٣صـ ٨١ .

(٣) أخرجه مسلم (١٧) .

(٤) سورة الروم من آية ٣٠ .

المبحث السادس

هل الأخلاق قابلة للتعديل والتغيير

لا مناص من توجيه هذا السؤال ، وهو هل أخلاق الإنسان قابلة للتبديل والتعديل أم أنها لا تقبل ذلك ؟

خلاف بين الباحثين في هذه المسألة .

يرى البعض أن الأخلاق غير قابلة للتغيير وحجتهم في ذلك أن الأخلاق تابعة للمزاج والمزاج لا يتغير ؛ لأن الطباع لا تتغير واستدل على هذا بأمرين كما ذكرهما الغزالي ملخصًا لكي يرد عليهما ، وهذان الدليلان هما :

الأمر الأول : أن الخُلُق هو صورة الباطن ، كما أن الخلق هو صورة الظاهر والخلقة الظاهرة لا يُقدر على تغييرها . فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً ، ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرًا ، والقبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبيح في الباطن يجري هذا المجرى .

الأمر الثاني : أنهم قالوا : حسن الخُلق يقمع الشهوة والغضب ، وقد جُرِّب ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فالاشتغال بذلك تضييع للزمان بغير فائدة [1] .

وهذا الرأي ظاهر البطلان بدليل أننا إذا تأملنا حقيقة الخُلُق في الفكر الإسلامي فإننا نلاحظ أن الأخلاق في نظر الإسلام ليست مجرد ألفاظ أو شعارات تردد ، بل هي على العكس من ذلك سجية أو عادة أو اتجاه راسخ في النفس تتعاون في تكوين عوامل وراثية تتمثل في الذكاء والمزاج والغرائز وما إلى ذلك . وعوامل بيئية تتمثل في التربية والتعليم والتدريب والتوجيه . فالخُلق قابل للتعديل والتغيير والتطوير عن طريق التربية

---

(1) انظر دراسات في فلسفة الأخلاق د / محمد عبد الستار نصار ص ٢٤ ، ٢٥ (بتصرف)، فلسفة التربية الإسلامية ، عمر الشيباني ص ٢٢٧ .

والمران والرياضة النفسية والمجاهدة [١] .

أما الفريق الآخر من الباحثين – وهو يمثل جمهور الباحثين – يرون أن الخُلق قابل للتغيير ، وعلى رأس هؤلاء جميعًا سقراط مؤسس علم الأخلاق ، فكان يعتقد أن الجهل مصدر الشر وأصل الفساد ، وأن العلم منبع الخير وأن العلم والفضيلة توأمان لا يفترقان . فالفضيلة في نظره هي العلم والمعرفة [٢] ، ومعرفة الخير كافية لإتيانه .

ولا نعني بذلك أن جميع الأخلاق قابلة للتغيير . بل هناك من الأخلاق ما هو ثابت لا يقبل التغيير والتطوير في جوهره الأصلي . فهو ثابت مطلق لا يتقيد بزمان ولا مكان . فالحكمة والشجاعة والعفة والصدق وما إلى ذلك من الفضائل هي في جوهرها الأصلي قيم إنسانية عامة يقتضيها الوجود الإنساني في كل زمان ومكان . لكن هذا الثبات لا ينافي أن الأفراد يختلفون في طرق استجابتهم لهذه القواعد والقيم ، وفي درجة تمسكهم بها . وحسب الظروف الاجتماعية التي قد تطرأ على بعض العصور كمثل التخلي عن الصدق شيئًا إذا كان به ضرر بمصلحة الأمة وأمنها وهذا التغيير ليس أمرًا يسيرًا بل هو صعب نسبيًا ؛ لأنه من الصعب على النفس أن تتخلى عن عاداتها واتجاهاتها الراسخة [٣] ، قد أيد هذا الرأي معظم علماء الأخلاق من أمثال الإمام الغزالي – حجة الإسلام – حيث قد تصدى بالرد على من يقول بعدم تغيير الأخلاق ، وقال : (لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله ﷺ : " حسنوا أخلاقكم" [٤] ، وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير الخُلق ممكن في الحيوان ، إذ ممكن أن ينتقل الحيوان المتوحش إلى مستأنس ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ، وكل ذلك تغيير للأخلاق . . . فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعها وقهرها بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً ، ولو أردنا سلاستهما

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية ، عمر الشيباني صـ ٢٢٨ .

(٢) الفلسفة الخلقية د/ توفيق الطويل صـ ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/٣٩ رقم ٥٨) ضعيف .

وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه [١] .

ثم أوضح لنا بعد ذلك أن الطبائع مختلفة بعضها سريعة القبول ، وبعضها بطيئة القبول . فحسن الخُلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة والشرع .

ويقرر الغزالي بعد ذلك أن هذا الكلام لا يبعد أن يكون في الفطرة ما قد ينال بالاكتساب [٢] .

ويذهب لهذا الرأي أبو القاسم الأصفهاني حيث يقرر على إمكانية تغيير الخلق ويؤكد هذا بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [٣] .

ويتسأل أحمد أمين : إذن نتسأل : هل في استطاعة علم الأخلاق أن يجعلنا صالحين أخيارًا ؟

والجواب : أن علم الأخلاق يفتح أعيننا ليرينا الخير والشر ويوضح لنا الفضيلة والرذيلة وآثارهما . ولكنه يستطيع أن يجعلنا جميعًا أخيارًا بل هو شأنه شأن علم الطب فهو يبين لنا الأمراض المختلفة ووسائل علاجها ويبصرنا بطرق الوقاية من هذه الأمراض ، وكيفية توقي العدوى ويشرح لنا القواعد الصحية التي تجعلنا أصحاء موفوري القوة والعافية . ولكن هل معنى هذا أن علم الطب يضمن لنا الصحة ويجعلنا دائمًا في أمان من الأمراض وشرورها ؟ كلا إن هذا لا يتحقق إلا بأمرين :

أولاً : أن تكون بنية الإنسان قوية قادرة على مقاومة ميكروبات الأمراض والتغلب عليها .

ثانيًا : أن يتبع الإنسان برضى كل القواعد الصحية ولا يهمل فيها .

وإذا أردنا أن نطبق ما قلناه عن علم الطب على علم الأخلاق فإننا نقرر أن علم

---

(١) الإحياء جـ٣صـ ٨١ ، ٨٢ ، وتأملات في فلسفة الأخلاق ، منصور على رجب صـ ٣٤ .

(٢) المرجع السابق جـ٣صـ ٨٤ .

(٣) سورة الشمس الآيات ٩ ، ١٠ .

الأخلاق يبين لنا الفضائل المختلفة ويشرح لنا فوائدها الجمة وكيف أن المتحلي بها يكون الإنسان المثالي ويكون أقرب إلى الله وأعلى منزلة وأنه بفضلها يحيا حياة صالحة قويمة سعيدة ، وإذا كان ليس في علم الطب أن يجعل جميع الناس أصحاء ، كذلك فإنه ليس في مقدور علم الأخلاق أن يجعل كل الناس أخيارًا وإنه لكي يكونوا أخيارًا يجب أن يتوفر عاملان :

أولاً : أن يكون استعداد المرء طيبًا وأن يكون ميالاً بطبعه إلى الخير والتقوى والصلاح ويكره الرذيلة بوازع داخلي من ضميره ووجدانه .

ثانيًا : أن يتقبل ويتبع برضى أوامر علم الأخلاق وما يحض عليه من الفضائل وأن يؤمن برسالة علم الأخلاق ويحملها ويبشر بها .

إذن علم الأخلاق يمكن أن نشبهه بالطبيب ؛ حيث الطبيب يبصر مريضه بالأضرار التي تنجم عن شرب المسكرات وتناول المخدرات ، ويصف له أضرارها ويشرح له تأثيرها الضار في الجسم والعقل معًا والمريض بعد ذلك له أن يختار طريقه. إما أن يمتنع عن الخمر فتحسن صحته وإما أن يتعاطهما فتفسد صحته. والطبيب لا يستطيع منعه .

وأيضًا علم الأخلاق كالطبيب ليس في استطاعته أن يجعل كل فرد صالحًا نقيًا ورعًا ، ولكن يريه الخير والشر ويبين له آثارهما ، والإنسان بعد ذلك حر في اختيار طريقه إما طريق الخير وإما طريق الشر .

إذن علم الأخلاق لا يفيدنا ما لم نكن لنا إرادة تنفذ أوامره وتجنبنا نواهيه [١] .

فالأخلاق قابلة إلى أن تتطهر مما علق بها من أخلاق رديئة . مع اختلاف درجات التغيير . وأن الأخلاق منه ما هو طبيعي في النفس ومنها ما ينال بالاكتساب والتعلم [٢]

---

(١) دراسات في علم الأخلاق في ضوء القرآن الكريم والسنة الشريفة د/ عزة محمد حسن ، جامعة الأزهر ــ بنات القاهرة طــ ١ سنة ١٩٩٣ .

(٢) كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني .

.

وكذلك العالم الأخلاقي "مسكويه" يذهب لهذا الرأي أيضًا ويرى أن الأخلاق قابلة للتعديل إما بسرعة أو ببطء ، يشهد بذلك الواقع بانتقال الصبي الناشئ من حال لحال تبعًا للبيئة التي تحوطه ولنوع التوجيهات التي يتلقاها [١] .

وفي حقيقة الأمر نقول أنه لا ينكر إمكانية تعديل الخلق إلا مكابر ومعاند ومنكر للشاهد الملاحظ ، فالحياة من حولنا تؤكد هذه الحقيقة فنرى الطفل يتغير كل يوم من حال إلى حال ، وكذلك الإنسان عامة في جميع أطواره قد يكون اليوم في حال ويصبح غدًا في حال آخر ، وكذلك لو لم يكن هذا الأمر ممكنًا لما أرسل الله تعالى الرسل مبشرين ومنذرين ، ولما كان هناك جدوى من النصائح والمواعظ والتأديب. وحاشا لله تعالى أن يأمر بشيء مستحيل وأن يكلف الإنسان ما لا يطيق.

فالشرع وحده هو الذي له السلطة التشريعية في حياتنا والقرآن ذاته يؤكد لنا هذه الحقيقة في كثير من آياته قال تعالى : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ ، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ . فالمسلم يستضئ بنور عقله ويسترشد به وفق منهج الله حيث أن الحاكية المطلقة لا تكون إلا لذلك المصدر المعصوم ، الذي لا تعتريه الزيغ والباطل وهو معيار الشرع والوحي .

---

(١) الإحياء جـ ٣ .

المبحــث الســابــع

العلاقــة بين علـم الأخلاق وبين بعض علـوم الفلسـفة الإنسانيـة الأخـرى

من المعتاد لدى المؤلفين ابتداء الكلام على العلم بشرح العلاقة بينه وبين العلوم الأخرى ، وإنني سوف أجاريهم في ذلك واقتصر على شرح العلاقة بين علم الأخلاق وبعض العلوم الفلسفية التي تتصل به كبير اتصال .

حيث أن هناك صلة قوية بين العلوم الإنسانية كلها ؛لأنها تتجه إلى دراسة الإنسان ، ولكن كل علم منها يستقل بدراسة جانب من جوانبه ، وفي وضع معين من أوضاعه .

وعلم الأخلاق يحتاج إلى كثير من العلوم الإنسانية الأخرى كعلم النفس والاجتماع والقانون والاقتصاد والمنطق ... الخ ؛ وذلك لأن الظاهرة الأخلاقية سلوك إنساني ناشئ عن عوامل داخلية بالدرجة الأولى من غرائز وانفعالات وغيرها، ودارس الأخلاق لا يستغني عنها ، حتى يصل إلى أحكام خلقية صحيحة ولنوضح ذلك بتوضيح الصلة بين الأخلاق وبعض العلوم الإنسانية فيما يلي :

أولاً : صلة علم الأخلاق بعلم النفس :

إن علم النفس مقدمة ضرورية لابد منها لدارس علم الأخلاق ؛ حيث أن علم النفس يبحث في القوى الأساسية والرئيسية في السلوك الإنساني كالضمير والإرادة والذاكرة وغيرها من قوى النفس الإنسانية ، وعلم الأخلاق يتخذ لنفسه موضوعًا هو أفعال الإنسان العاقل الحر المريد أي أن موضوعه سلوك إنسانى ناشىء عن عوامل داخلية بالدرجة الأولى من غرائز وانفعالات وغيرها ، كالميول والرغبات والإرادة واللذة والألم . ولعل هذه الصلة القوية بين علم النفس وعلم الأخلاق هي التي حملت الكاتب الفرنسي "سانتهلير" على أن يقول: "لا يتحقق علم الأخلاق بدون المعرفة السيكولوجية ، وإلا عُد علمًا تحكميًا ، إن علم النفس بتحاليله المضبوطة يجب أن يكون دليلنا الوحيد ، ولنا أن نضع فيه كل ثقتنا " .

وهذه الصلة بين علم النفس وعلم الأخلاق لا تمنع أن هناك تباينًا بين العلمين من

حيث الغاية، فبينما علم النفس يدرس الظواهر النفسية دون إبداء الحلول لمشاكلها ، نجد علم الأخلاق يتجاوز ذلك إلى رسم الطريق السوي للسلوك [١] .

وإذا كانت قوانين الأخلاق قد وضعت ليكيف الإنسان سلوكه على مقتضاها ، فيجب أن يعرف الإنسان نفسه أولاً ثم يكيفها على أساس هذه القوانين الأخلاقية ، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وقد روى عن رسولنا الكريم ﷺ :" إذا أراد الله بعبد خيرًا بصره بعيوب نفسه" [٢] .

إذن علم النفس يلتقي بعلم الأخلاق من ناحية أن كلا منهما يبحث الإنسان من ناحيته الفلسفية . علم الأخلاق من ناحية ما يجب أن يكون عليه الإنسان وعلم النفس من ناحية ما هو عليه بالفعل .

ثانيًا : علم الأخلاق وعلم الاجتماع :

هناك صلة أيضًا بين علم الأخلاق وعلم الاجتماع ؛ لأن الأخلاق يظهر أثرها في المجتمع سواء أكانت خيرة أم شريرة ؛ لأن دراسة السلوك أي أعمال الإنسان الإرادية – التي هي موضوع الأخلاق تجر حتمًا إلى دراسة الحياة الاجتماعية ، التي هي موضوع علم الاجتماع ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يعيش إلا مجتمعًا .

وليس في قدرتنا أن نبحث فضائل الفرد ؛إلا إذا بحثنا المجتمع الذي ينتسب إليه ، وعرفنا ما فيه مما يعين على نمو الفضيلة أو يعوقها [٣] . فمثلاً : انحراف الأطفال في حي من الأحياء، ظاهرة خلقية واجتماعية ترجع إلى أسباب متداخلة، لعل أبرزها العوامل النفسية والاجتماعية ، وهذه الظاهرة محل دراسة بين الأخلاق وعلم النفس والاجتماع

---

(١) بتصرف من دراسات في فلسفة الأخلاق د/ محمد عبد الستار نصار ص ٢٧ – جامعة الأزهر – جامعة قطر، مكتبى لطباعة الأوفست ، وانظر كتاب تأملات في فلسفة الأخلاق ، منصور على رجب ص ٥٧ .

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (٢٨٢) ، والبيهقي في الشعب (١٠٠٥٣) ، وهو ضعيف.

(٣) الأخلاق / أحمد أمين ، نقلاً عن العلاقة بين السياسة والأخلاق في مقدمة كتاب أرسطو لسانتهليز ترجمة لطفي السيد ص ٧٦

والقانون والاقتصاد، وقد يشاركها بعض العلوم العملية كالطب مثلاً، كأن يكون من أسباب الظاهرة المباشرة اعتلال الصحة . فنجد الظاهرة ينظر إليها من وجهة نظر كل واحد من هذه العلوم وكل بحسب موضوعه ، فعلم الاجتماع يدرسها كظاهرة اجتماعية، بمعنى أنه يُعني باكتشاف أسبابها ، وقد يساعده في ذلك علم النفس والطب، ولكن علم الأخلاق يرسم الطريق الصحيح لتلافي هذه الظاهرة [١] .

ثالثًا : علم الأخلاق وعلم القانون :

توجد صلة قوية بين العلميين لأن موضوعهما أعمال الإنسان ، وغايتهما واحدة وهي : تنظيم أعمال الناس لإسعادهم ، فكلا منهما يضع ضوابط للسلوك الاجتماعي ، وإن كان العلمان يختلفان من حيث مصدر الإلزام واحترام القواعد والمبادئ ؛لأن القانون الوضعي لا يعرف من الأعمال إلا ما ظهر منها ، ووقع تحت طائلته فيحكم عليها بناء على ذلك . أما القانون الخلقي – علم الأخلاق – فهو يؤاخذ على الظواهر والبواطن حتى خطرات النفس، وذلك بما وضع في الضمير مــن معاني حية تشد الإنسان إلى فعــل الخير وتؤنبه على فعل الشر. فدائرة علم الأخلاق أوسع لأنها تأمر بعمل كل ما ينفع وتنهي عن عمل كل ما يضر ، وليس كذلك القانون ، فهناك أعمال نافعة لا يأمر بها القانون كالإحسان إلى الفقير ، وهناك أعمال ضارة لا ينهي عنها القانون كالكذب والحسد ورذائل خفية ككفران النعمة .

أما علم الأخلاق يبحث في حركات النفس الباطنية ولو لم يصدر عنها عمل خارجي كما يبحث في الأعمال الخارجية . والسبب في عدم تدخل القانون في هذه الأشياء وأمثالها : أن القانون لا يأمر ولا ينهي إلا إذا استطاع أن يعاقب من يخالف أمره أو نهيه وإلا لم يكن قانونًا [٢].

---

(١) بتصرف من دراسات في فلسفة الأخلاق د/محمد عبد الستار نصار، جامعة الأزهر ص ٢٧.

(٢) الأخلاق ، أحمد أمين ص ٧ .

وتوضيح ذلك : أن القانون يستطيع أن يقول : " لا تسرق " و " لا تقتل " أما الأخلاق فتشارك القانون في النهى عن السرقة والقتل فتزيد عليه فتقول : " لا تفكر في الشر " ، وأيضًا القانون يستطيع أن يحمى ملك الناس وأن ينهى عن التعدى عليه ، ولكن لا يستطيع أن يأمر المالك أن يقصد إلى المصلحة والخير في استعمال ماله ، إنما الذى يستطيع هذا الأمر هو علم الأخلاق [١] .

رابعًا : علم الأخلاق والاقتصاد السياسي :

وأيضًا هناك صلة قوية وعلاقة بين الأخلاق والاقتصاد وأثرهما في علاقة المحكومين بالحكام ؛ حيث أن الاقتصاد السياسي يدرس ثروات البشر في مجتمعهم، مصادرها وطريقة توزيعها ، وأثرها في السلوك الاجتماعي ، وبالتالي : أثرها في السلوك الأخلاقي لأن العلاقات الاقتصادية لو لم تقم على أساس أخلاقي يساعد في استتباب العلاقة بين الحكام والمحكومين لكانت شرًا على الجانبين . ولهذا يجب أن يكون التشريع في الممالك يستند على علم الأخلاق لأن علم الأخلاق هو الذي يعطي القانون ولا يأخذ منه [٢] .

خامسًا : علم الأخلاق والمنطق :

هناك تشابهًا بين العلمين من حيث أن كلا منهما من العلوم المعيارية .

فعلم المنطق : مهمته أن " يدرس التفكير" بمعنى أنه يضع القواعد التي يجب أن يفكر الإنسان على مقتضاها ليعصم ذهنه من الخطأ في التفكير .

وعلم الأخلاق : يدرس "أعمال الإرادة" بمعنى أنه يضع القوانين التي ينبغي أن يكيف الإنسان سلوكه على مقتضاها . كما أن كلا منهما يضع المقاييس الصحيحة للغاية منه، فعلم المنطق يضع مقاييس "الحقيقة" وعلم الأخلاق يضع مقاييس"السلوك".

بمعنى آخر : أن كلا منهما – علم الأخلاق وعلم المنطق – يبحث في الإنسان من

---

(١) المرجع السابق ص ٧ .

(٢) دراسات في فلسفة الأخلاق د/ محمد عبد الستار نصار ص ٢٨ (بتصرف) .

الناحية النفسية : كل من جهة : هذا من ناحية سلوكه ، وهذا من ناحية تفكيره ، لكن . هل يتصل المنطق بالأخلاق من الناحية الحية ؟ بمعنى أن التفكير المنطقي يخلق رجالاً على سلوك طيب بالفعل . واقع الحياة يرينا أن بعض الناس يكون أقربهم إلى التفكير المنطقي أو أعلمهم به وأبعدهم عن سلوك الأخيار . وإذا كان المنطق مفتاح الفلسفة على معنى أن الذي لا يعرف المنطق لا يعرف الفلسفة ، فإني أضم إلى أن الذي يفكر التفكير المنطقي ولا يظهر ذلك على سلوكه بالفعل ، فليس من المنطق في شيء .

فالمنطق مهمته أن يعصم الذهن عن الخطأ في التفكير .. فالذي يخطئ في عملية حسابية أو نظرية هندسية أو قاعدة علمية .. . هؤلاء لم يفكروا تفكيرًا سليمًا ولم يثبتوا تثبيتًا حكيمًا .. . كذلك الذي ينحرف عن السلوك الطيب ليس منطقيًا مع نفسه .. . وإن حفظ مسائل المنطق عن ظهر قلب .. . وقديمًا قال سقراط : "الفضيلة المعرفة " فمن لم توصله المعرفة إلى الفضيلة بالفعل فليس من المعرفة في شيء ، أو معرفته ناقصة ، فالمعرفة الصحيحة تعطي الثمار .. . [1] .

(1) تأملات في فلسفة الأخلاق د/ منصور على رجب صـــ٦٠ ط ٣ ، بتصرف .

المبحـــث الثامـن
الفــرق بــين الأخــلاق النظريــة والعمليــة

حين نتعرض لدراسة الأخلاق ، نجد هذا العلم من العلوم يتشعب من حيث دراسته إلى شقين :

أ – شق نظري . ب – شق عملي .

الشق الأول : النظري :

حيث إنه يضع القواعد المثلى لما يجب أن يكون عليه السلوك الإنساني ، ويبحث في الباعث والمقصد، وعلم الفضائل، وكيفية اقتنائها ، ومعرفة الشرور وكيفية توقيها ، وكلها أمور نظرية ترسم لنا الطريق نحو سلوك خيّر ، وتحدد لنا معالمه وبواعثه وغاياته [١] .

ويقال عن أي علم إنه نظري ، إذا كان لا يعني إلا بتحصيل المسائل وإدراكها فقط ، دون النظر إلى ما وراءها من تطبيق .

ويقال عن العلم إنه تطبيقي إذا كان يجعل الناحية العملية غايته ، بعد تحصيل القواعد والمبادئ التي ينبغي أن تتبع عند التطبيق، فهو نظري وعملي في الوقت نفسه .

فمثلاً : علم المنطق من حيث هو مسائل ومباحث تخضع للتحصيل والدراسة لمعرفة القواعد التي تعصم الذهن من الخطأ في التفكير ، هو علم نظري .

وأما من ناحية كون هذه القواعد ينبغي مراعاتها عند التفكير حتى تعصم الذهن عن الخطأ فيه ، فهو علم تطبيقي أو عملي .

والقسم الأول – الأخلاق النظرية – يدرس الضمير ، حقيقته ، ومظاهره من عواطف مختلفة ، كالرضا والاغتباط والسرور الداخلي لفعل الخير ، والألم والتأنيب عند فعل الشر ، وكذلك ما يصدره من أحكام أخلاقية على مختلف الأعمال الاختيارية ، وهل هي صادرة عن فكر وروية ، أو عن تقليد ومحاكاة ، كما يدرس هذا القسم الطرق

---

(١) العقيدة والأخلاق ، د/ بيصار ص ١٩٩ ، والأخلاق : أحمد أمين ص ٦ .

التي تتبع في تعرف المثل الأعلى في الأخلاق كما يبحث أركان المسئولية الخلقية كالحرية والإرادة ، ويبحث تبعًا لذلك مسائل الجبر والاختيار ، والثواب والعقاب ، والبواعث التي تدفع إلى الأعمال ، وأي الغايات ينبغي أن تكون هدفًا للفرد والجماعة ، وكذلك يبحث في ماهية الشر والخير ، والمقاييس التي تقاس بها الأعمال لبيان خيرها وشرها ، كما يبحث في الحق والواجب ، وما يتصل بهما .

كل هذا مع بيان النقد الذي يوجه إلى النظريات والآراء المختلفة التي تواردت على هذه المسائل التي ذكرناها ، ثم يحاول إيجاد حلول لما لم تتقارب فيه الآراء من المشاكل الأخلاقية [١] .

أما الشق الثاني : الأخلاق العملية :

بمعنى كونه علمًا تطبيقيًا عمليًا ، فهو يطلب منا تطبيق هذه الأمور النظرية على سلوكنا والتحلي بها، والسير على نبراسها، حتى تهذب أنفسنا وتحقق لها الكمال [٢].

فهذا القسم يدرس الواجبات المختلفة، كواجب الإنسان نحو نفسه ، ونحو أسرته ، ونحو وطنه ، ونحو الإنسانية جمعاء ، ثم واجبه نحو الكائنات الأخرى الحية كالحيوان ، وأخيرًا واجبه نحو خالقه ، وكذلك يبحث في الحقوق ، كحق الحياة والملك .. . الخ .

وبالجملة يتعرض هذا القسم لمباحث القسم الأول بالتطبيق ، على ظروف الحياة العملية المختلفة ، ليقول فيها كلمة الأخلاق بما يتفق والمقاييس الأخلاقية ، المتواضع على تحكيمها في الحياة العملية [٣] .

إذن فهو علم يختص بالرقابة على ممارسة الجانب النظري ، ومدى تطبيقه في الحياة

---

(١) مباحث في فلسفة الأخلاق د/ محمد يوسف موسى ص ١٢ نقلاً من دراسات في فلسفة الأخلاق د. محمد عبد الستار نصار ، جامعة الأزهر ص ٢٣ ، مكتبي لطباعة الأوفست .

(٢) العقيدة والأخلاق د/ بيصار ص ١٩٩ ، تاريخ الأخلاق في الإسلام ، والأخلاق ، أحمد أمين ص ٦ .

(٣) مباحث في فلسفة الأخلاق د/ محمد يوسف موسى ص ١٢ .

الواقعة للفرد والجماعة ، بحيث يكون من شأن الحكم بمطابقة الفعل أو عدم مطابقته لقانون الأخلاق وبموافقته أو عدم موافقته لمعاني (الحق) و(الواجب) ولمقاييس الأخلاق سواء تعلق ذلك بالفرد أو الجماعة [١] .

فالأخلاق العملية في جملتها ليست سوى ضبط سلوك الإنسان ومحاولة تقويمه بصفة متطردة ، بحيث يحافظ الإنسان على وجوده الحضاري ، وتميزه كإنسان أتيح له أن يكون سيد هذا الكون ، والكائن المرموق في هذا الوجود المترامي الأطراف .

والأخلاق العملية إذن موجودة في كل اجتماع بشري ، والدافع إليها دائمًا الرغبة في التميز والمحافظة على المكانة المرموقة .

والذي يتأمل المجتمع الإنساني مستقصيًا التاريخ والتطور المطرد له ، يجد أن ظهور الجانب العملي في الأخلاق سابق ضرورة على الجانب النظري التجريدي .

ومن جهة أخرى فإن هذه الحقيقة الميدانية تؤكد شيئًا هامًا وضروريًا ، وهو أن التأليف والكتابة في الأخلاق ، ومحاولة التنظير وتقعيد القواعد للعمل الخلقي إنما يعتمد اعتمادًا مباشرًا على ما يجري في المجتمع ، مما تعارف عليه المجتمع من أسس فلسفية لأفعال متفرقة .

وهنا يمكن القول بارتياح : إن تأسيس الأخلاق النظرية لابد أن يسبقه بالضرورة الممارسة الميدانية بفترة كافية ، تتيح للفعل الخلقي أن يستقر على أساس فكري ، يكون مقبولاً ، ومفهومًا لدى الممارسين لهذا الفعل .

وإلى هذا الحد تكون الكتابة في الأخلاق والتنظير فيها ، مشابهة تمامًا للكتابة في معظم العلوم الإنسانية ، كالتاريخ ، والاجتماع ، وعلوم اللغة وآدابها إلى آخره .

---

(١) العقيدة والأخلاق د/ بيصار ص ١٩٩ .

غير أنه لا يكون من المقبول أن نقول : إن هذه العلوم متشابهة فحسب من حيث الكتابة فيها وتناول موضوعاتها ، ثم نقف عند هذا الحد من التشابه ؛ لأن كل علم من العلوم يحتاج إلى ما يميزه عن غيره ، ويمنحه شخصيته المستقلة ، وميدانه الذي يختص به .

والباحث الأخلاقي لا يعتمد فقط على تسجيل ما يراه من الفعل الخلقي ، وتسجيل الموقف الفلسفي لهذا الفعل ، وإنما هو يضيف إلى ذلك تقييم هذا الفعل الخلقي ، أو ذاك والحكم عليه ، ووضعه في مكانه اللائق به من الأخلاق .

فالباحث في الأخلاق عليه أولاً أن يستقصي طبيعة المجتمع والناس ، والروح الفردية والجماعة ، ويسجل الأعمال الخلقية والممارسات اليومية لهذا الشعب ميدان البحث .

وعلى الباحث من جهة ثانية أن يتصور المجتمع بعين باصرة من حيث مستقبله وحاضره وماضيه ، ويضع للمستقبل نظمًا وقواعد يسمح للإنسان أن يرتقي بأخلاقه ، بحيث يسمو فوق مرحلتي الحاضر والماضي ؛ لأن هذه المرحلة تتصل بالتشريع ووضع القانون المستمر الدائم [1] .

وبعد أن عرفنا الفرق بين الأخلاق النظرية والعملية ، نؤكد أن الإسلام وضع مذهبًا أخلاقيًا نادرًا ، حيث اهتم بالجانب النظري والجانب العملي ، وطالبنا بهما معًا ، ولا يمكن الفصل بينهما ، فما فائدة الأخلاق دون التحلي بها ، وما فائدة العلم بالخير دون العمل لأجله ولاكتسابه .

---

(1) الأخلاق في إطار النظرة التطورية د، طه حبيش ، أستاذ العقيدة والفلسفة ، كلية أصول الدين ، القاهرة ص ١٤ – ١٧ (بتصرف شديد) .

الخاتمة

إذا ما أنتهيت من العرض السابق لبحث " مقدمة فى علم الأخلاق " كما جاء في المقدمة ، أختم كلامي مشيرة إلى :

١ – أن علم الأخلاق له من الأهمية بمكان ، بحيث شغل المفكرين منذ القدم إلى الآن ، وسيظل يشغلهم طالما وجد الإنسان واستمرت الحياة .

٢ – كما عرضت الفائدة من تعلم الأخلاق على وجه العموم ، وبينت أنها علم معياري يضع المبادئ التي ينبغي أن يكون عليها سلوك الإنسان ، كما يضع المعايير الصحيحة لتقويم السلوك وتقييمه .

٣ – الغاية من تعلم الأخلاق ، وثمرته ؛لأنه العلم الذي يعلمنا كيف نحترم ذواتنا ، ونحب غيرنا حُبنا لذواتنا، ولذا فلا غني لنا عنه في أي مكان وزمان. فهو قريب الصلة بالإنسان ، بل إنه لأقرب العلوم إليه من أي علم آخر ؛لأنه العلم الذي يعلمنا واجباتنا نحو الله والملك والأهل ، وجميع ما يحيط بنا بصفة عامة ، كما يعلمنا الطريق الذي يجب سلوكه ، ولهذا فكل الناس في حاجة ماسة لتعلمه .

فتعلم علم الأخلاق ومعرفته ، أمر ضروري ومفيد للفرد والجماعة على حد سواء خاصة بعد أن عرفنا العلاقة بينه وبين بعض العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها ، وأخيرًا وضحت الفرق بين الأخلاق النظرية والعملية ؛ وأنه لا يمكن الفصل بينهما ، كما علمنا إسلامنا قرآنًا وسنة .

ثبــت المصــــادر والمراجــع

أولاً : القرآن الكريم .

ثانيًا : كتب السنة : صحيح مسلم .

ثالثًا : المصادر والمراجع :

١ – إحياء علوم الدين . حجة الإسلام أبو حامد الغزالي .

٢ – الأخلاق . أحمد أمين .

٣ – الأخلاق في التصور الإسلامي .

٤ – الأخلاق في إطار النظرة التطورية د/ طه حبيش ، أستاذ العقيدة والفلسفة ، كلية أصول الدين – القاهرة .

٥ – أصول الدعوة د/ عبد الكريم زيدان .

٦ – تاريخ الأخلاق في الإسلام .

٧ – تأملات في فلسفة الأخلاق . د/ منصور على رجب ، الأنجلو المصرية .

٨ – تفسير ابن كثير .

٩ – تفسير البغوي .

١٠ – دراسات في فلسفة الأخلاق . د/ محمد عبد الستار نصار ، جامعة الأزهر ، مكتبة لطباعة الأوفست .

١١ – الدر المنثور .

١٢ – شرح السنة للبغوي .

١٣ – صحيح مسلم .

١٤ – العقيدة والأخلاق . د/ محمد بيصار .

١٥ – فلسفة التربية الإسلامية . عمر الشيباني .

١٦ – الفلسفة الخلقية . د/ توفيق الطويل .

١٧ – كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني .

١٨ – كلمات في الأخلاق الإسلامية . كمال محمد عيسى .

١٩ – مباحث في فلسفة الأخلاق . د/ محمد يوسف موسى .

٢٠ – مباحث في فلسفة الأخلاق . منصور رجب .

فهـرس الموضـوعات

مقدمـــة ٢
المبحث الأول ٥
مدخل لعلم الأخـــلاق ٥
المبحث الثانى : تعريف علم الأخلاق ١٣
المبحث الثالث : موضوع علم الأخلاق ٢١
المبحث الرابع : غاية وثمرة علم الأخلاق على الفرد والمجتمع وأقسامه ٢٤
ثانيًا : أقسامه : ٢٦
القسم الأول : الجانب النظري : (الأخلاق النظرية) ٢٦
القسم الثاني : الجانب العملي (الأخلاق العملية) ٢٧
المبحث الخامس : هل الأخلاق فطرية أم مكتسبة ٢٨
المبحث السادس : هل الأخلاق قابلة للتعديل والتغيير ٣٣
المبحث السابع : العلاقة بين علم الأخلاق وبين بعض علوم الفلسفة الإنسانية الأخرى ٣٨
المبحث الثامن : الفرق بين الأخلاق النظرية والعملية ٤٣
الخاتمة ٤٧
ثبت المصادر والمراجع ٤٨